الحرية

التحرر من الإيمان و المعتقدات

الإنسان كسجين في سجن، أسير سلسلة من الأفكار ولكن ما هي الحجارة التي استخدمت لإقامة السجن الفكري ؟ ناقشنا أولها و هو وهم المعرفة و سنناقش الآن نوعاً آخر لا يقل خطورة... إذا تمكنا من إزالة هذين الحجرين سنتمكن من تجاوز السجن الفكري..

ما هو النوع الثاني من الحجارة إذاً ؟ ما هي الدعامة الأساسية الثانية المستخدمة لبناء السجن الذي تقبع فيه أفكارنا و ما هي الخيوط التي نسجت منها شباكه ؟ من الممكن أنك تعلم و من الممكن أنك لا تعلم عن هذا شيئاً؛ من الممكن أنك تعلم و من الممكن أنك لا تعلم كيف امتلأت عقولنا بهذا الكم من التناقضات...

إننا كعربة للنقل تشدها أربعة ثيران قوية في الجهات الأربع وفي الوقت نفسه، هل ستستطيع هذه العربة الوصول إلى أي مكان... إن العربة و هيكلها في خطر فالثيران الأربعة تشد بالجهات الأربع في المنتصف، أتستطيع الوصول إلى أي وجهة ؟

obeikandl.com

لن تصل إلا لوجهة واحدة و هي التمزق التام... مع أربعة ثيران قوية تشدها بالجهات الأربع المتعاكسة لا يمكن للعربة سوى التخلي عن أجزائها و التمزق.

الصراع الداخلي بين الأفكار في عقولنا يكاد يقتلنا... جميع أفكارنا متناقضة، متنازعة و مشتتة و كل منها تعاكس الأخرى... تشد ثيران أفكارنا عقولنا بالجهات الأربع و نحن في الوسط مضطربون نعاني و لا نعلم كيف تمكن هذا الصراع وهذا التناقض من الإقامة داخلنا.

كان أوشو يزور أحد الأطباء المرموقين في منزله... في الصباح وبينما كان الاثنان جاهزين للمغادرة عطس فجأة أحد أبناء الطبيب الذي قال « أن يعطس أحدهم دليل حظ سيء لذلك يفضل ألا ننصرف الآن؛ يفضل أن ننتظر قليلاً... » فقال أوشو «تبدو طبيباً غريباً و مدهش ما تقول، يجب أن يعلم الطبيب على الأقل أنها مجرد خرافة و لا علاقة لعطاس أحدهم بإمكانية ذهاب آخر إلى أي مكان ما أو عدم ذهابه. » ثم تابع قائلاً « لو تعرضت للمرض و أوشكت على الموت لما رضيت أن يعالجني طبيب مثلك، عليك أن تتخلص من شهادة الطب التي تحملها. »

obeikandl.com

مدهش حقاً أن تمنع خرافة صبيانية و هي عطاس أحدهم طبيباً من الذهاب إلى مكان ما... أفكار غرست في الطفولة وتتابع سيطرتها على أحدنا رغم ما قد يحصل عليه من معارف.
توجد الآلاف من هذه الأفكار في داخلنا و تعمل على شدنا في اتجاهات مختلفة و في الوقت نفسه، من الواضح أننا نعاني من الاعتلال... ماهي نتيجة ذلك ؟ من الواضح أيضاً أن هناك نتيجة واحدة وهي تحولنا إلى الجنون... عدد غير قابل للعد من أفكار متناقضة تجمعت و عبر آلاف السنين في فكر إنسان واحد؛ تعيش آلاف القرون و الأجيال في إنسان واحد و في وقت واحد... أفكار منذ خمسة آلاف عام و أخرى من الحديث الحديث تعيش باستمرار مع أحدنا و لا يوجد مجال لمقارنة أفكار هاتين الحقبتين فبينهما الكثير من الاختلاف و عدم الانسجام .
تجمعت أفكار من آلاف الاتجاهات المختلفة في لإنسان واحد؛ تجمعت في إنسان واحد كل أفكار المعلمين، الواعظين والقادة رغم أنها لا تتفق بشيء آخر، لا تتفق إلا بالطلب منا أن نؤمن بصحتها... تتفق جميع الأديان في العالم على مبدأ واحد فقطو هو « عليك أن تؤمن بصحة ما نقول..» يختلفون في كل شيء و يتفقون في هذا فقط تحت طائلة الذهاب إلى الجحيم...

يضحك بعضنا على غباء بعضنا الآخر لكنه لم يفكر مرة بمناقشة غبائه و الضحك عليه.

تقول المسيحية مثلاً أن المسيح مولود من فتاة عذراء و من لا يقبل بهذا عليه الذهاب إلى الجحيم... يشعر الإنسان العادي بالخوف و يجد نفسه مضطراً للقبول بكل ما يقال له و يقول بدوره « ما الذي سيتغير بالنسبة لي سواءً أولدت العذراء المسيح أم لم تلده؛ سواء ولد منها أم لم يولد ؟؟» و بالتالي يفضل القبول و لا حاجة للذهاب إلى الجحيم لسبب كهذا.

أما بقية العالم فتضحك على هذا و تدعوه غباءً.

و تقول المحمدية بأن محمداً قد صعد إلى السماء ممتطياً فرساً و شاهد الله و الجنة { هذا ما يسمى في الفكر الإسلامي بالإسراء و المعراج و الفرس هي البراق... تعتبر حادثة مغادرة الجسد و الصعود إلى السماء ثم العودة إلى الجسد عملية مألوفة لدى المستنيرين و لكن على ما يبدو لم يجد الحبيب محمد وسيلة لتقريب هذا لقومه إلا ما ذكر أو أنه أصيب بالتحريف أو سوء الفهم }... عند سماع الآخرين لهذا يبدؤون بالضحك و يقولون أنها من ضروب الغباء، فمن جهة أولى لا يمكن الإناث السفر إلى السماء ولو كان الحصان ذكراً لأمكن التفكير و الصفح عن ذلك، لكن الجسد من طبيعة

obeikandi.com

أرضية و لا يمكن له الذهاب إلى السماء، و لكن تسمي المحمدية من لا يؤمن بصحة هذا المعتقد كافراً و يتوجب عليه الإقامة الأبدية في نار جهنم و هكذا تتكرر المعتقدات فهناك من يقول بأن الآلهة قد تدخلت لنقل جنين من رحم امرأة إلى رحم أخرى من طائفة أخرى، و هناك من يعتقد بأن أحد القادة الدينيين اختبأ في جذع شجرة ثم قطع الأعداء تلك الجذع و هو بداخلها و بالتأكيد لم يمت لضرورة اكتمال المشهد... كل ذلك و عليك أن تؤمن تحت طائلة الذهاب إلى الجحيم.

بدون شك كانت هناك فترة من الزمن لم تعلم أي طائفة معتقدات غيرها فقد عاشت كل واحدة في قوقعتها و لم تتعرف سوى على معتقدات تلك القوقعة و لهذا السبب لم يكن هناك اختلاف يذكر، أما الآن و قد تحول العالم إلى قرية صغيرة فقد بلغ الخلاف حد الجنون و لم يعد إنسان قادراً على فهم أسباب هذا الضجيج و لم يعد قادراً على فهم ما يريده الآخرون.

أحدثت أفكار و تعاليم كل من طلب منا أن نؤمن بما يقول ضجيجاً و ارتباكاً في فكر الإنسان فقد أصغى لهم و بقيت انطباعات تعاليمهم عالقة داخله تشد وجوده في اتجاهات متعددة مختلفة بعد حقبة الأديان جاءت الشيوعية لتنفي كل

معنى لفكرة الدين و الألوهية و تقول بأن الدين الحقيقي فقط هو ما يقوله ماركس و على أحدنا ألا يؤمن بشيء سواه... وبذلك بدأ معتقد جديد بالظهور.

بعد الشيوعية جاء العلم ليقول بأن كل ما سبق من أديان وشيوعية باطل و عديم الصحة، و لا صحيح إلا ما يقوله العلم... قد يحدث خلال حياة أحد العلماء أن يأتي عالم آخر برأي مختلف و يدعي أنه المحق و سابقه على خطأ، و ربما يظهر ثالث ليأتي برأي مخالف لرأيي سابقيه و يدعي أنه مصيب وبأنهما مخطئين... و هكذا ربما يأتي رابع و خامس.

تسبب مذيعو و مدعو الحقائق بإحداث تشويش في عقل و نفس الإنسان... أفكار شديدة التغاير تعمل على شده في الجهات جميعها... تم استخدام الخوف و الرشوة و بطرق سرية لاختلاق كل هذه الفتنة و فرض مجموعة من المعتقدات... ثم، إذا لم تؤمن عليك الذهاب إلى الجحيم.

في الحقيقة يؤدي قادة الأديان و دعاتها من جهة و مسوقو الإعلانات من جهة ثانية الوظيفة نفسها إلا أن المعلنين أقل شجاعة... فقد يأتي في أحد إعلاناتهم بأن ملكة الجمال الفلانية حصلت على جمال بعد استخدام « الصابونة س مثلاً » و بالتالي يتولد خوف داخلي من شبح القباحة بالنسبة لمن لا

obeikandl.com

يستخدم الصابونة س فقد لا يحصل على الجمال ، و لهذا نهرع جميعاً لشراء الصابونة س كما لو أن الجمال قد ولد للتو و اللحظة على يد هؤلاء... رغم كل ذلك ما زالت شجاعة هؤلاء دون مستوى شجاعة زملائهم منظري الجحيم... فقد يأتي يوم و نسمع في الإعلان « استخدم س و إلا ستذهب إلى الجحيم. »

لا يتحلى معلنو اليوم بشجاعة أسلافهم بل يعمدون للتهديد بمجرد ذكر أشياء كاذبة و نتابع الإصغاء و القبول دون أية منقشة أو مقاومة... إذا استمر تكرار الكذبة نفسها لآلاف المرات و السنين سنبدأ بالاعتقاد أنها حقيقة رغم وضوح كذبها.

اشترى فلاح ريفي ماعزاً صغيراً في المدينة... رأته مجموعة من اللصوص و قطاع الطرق ففكروا أنهم لو استطاعوا الحصول على هذا الماعز فسيستمتعون بوجبة شهية كما سيكون بمقدورهم دعوة الأصدقاء إلى حفلة... ولكن كيف لهم ذلك ؟ بدا الفلاح قوي البنية لذلك سيصعب انتزاع الماعز منه بالقوة لذلك قرروا اللجوء للخدعة... بينما كان الفلاح يسير في الطريق اعترضه أحدهم و قال « مرحباً. »

فأجاب الفلاح « مرحباً. »

نظر اللص و قال « لم تحمل هذا الكلب على كتفك ؟ » بدون شك كان الفلاح متأكداً أنه يحمل ماعزه الصغير و ليس كلباً، ثم تابع اللص « من أين اشتريت هذا الكلب... يبدو رائعاً. »

ضحك الفلاح و قال « يبدو أنك مجنون، هذا ماعز صغير وليس كلباً... لقد اشتريته للتو. »

فقال اللص « أنصحك ألا تدخل قريتك حاملاً هذا الكلب وتظنه ماعزاً، سيعتقد أهل القرية أنك جننت. »

تابع اللص سيره أما الفلاح فقد ضحك و اعتقد أنه يواجه موقفاً غريباً ليس إلا، لكنه تلمس أرجل الماعز ليتأكد بأنه ليس كلب كما ادعى هذا الغريب، و هذا ما حصل بالفعل. »

في المفرق التالي جاء لص آخر وقال للفلاح « مرحباً... لقد اشتريت كلباً رائعاً و أرغب بشراء مثله، فمن أين حصلت عليه؟». لم يستطع الفلاح هذه المرة القول بنفس القوة بأنه يحمل ماعزاً و ليس كلباً، فقد يخطئ شخص واحد و يصعب ذلك على اثنين.

رغم ذلك بقي متماسكاً، ضحك و قال « لا يا سيدي، إنه ماعز و ليس كلب. »

obeikandi.com

فقال اللص « من الذي أخبرك ذلك ؟ يبدو أنك خدعت... » ثم تابع سيره... أنزل الرجل الماعز عن كتفه ليتأكد بأن هذين الرجلين قد أخطآ، و هذا ما حصل و لكن في هذه المرة بدأ نوع من الخوف الداخلي بالظهور لدى الفلاح، فقد يكون قد خدع فعلاً.

ازداد الخوف عندما تابع سيره، و عندها لقيه لص ثالث «مرحباً، من أين اشتريت هذا الكلب ؟» لم يجد الشجاعة هذه المرة ليقول بأنه ماعز و ليس كلب لذلك قال « اشتريته من المدينة » ثم بدأ يفكر: قد يتوجب عليه عدم أخذ الماعز إلى القرية... لقد هدر أمواله و لا مشكلة في هذا، المهم ألا يتعرض لانتقاد أهل القرية و ألا يتهم بالجنون... و بينما هو يفكر جاء رجل رابع و قال « إنك غريب بالفعل، لم يسبق أن شاهدت أحداً يحمل على كتفه كلباً، أتظنه ماعزاً ؟ ».

نظر الفلاح حوله و تأكد أنه وحيد في الطريق، أنزل الماعز عن كتفه، وضعه على الأرض ثم ولى مدبراً... فقد المال لكنه نجا من الجنون.

جاء اللصوص و أخذوا ماعزهم.

كرر أربعة أشخاص بالتتالي الكذبة نفسها فأصبح من الصعب على الفلاح الاعتقاد بأن ما يقولونه قد يكون خاطئاً...

ولكن، ماذا لو كان هؤلاء ممن يرتدون عباءات، عمامات ولحى ؟ سيصبح الأمر أصعب بالتأكيد، ماذا أيضاً لو كانوا أنفسهم صناع الحقيقة في حياتنا ؟ سيزداد الموقف صعوبة أيضاً و سيصبح أصعب و أصعب إذا كانوا من التزهديين الناكرين للعالم لأنه لا يوجد مبرر و لا ضرورة لإنكار ما يقول هؤلاء... لا أقول أنهم مخادعون بالضرورة لكن الغالبية العظمى من مبادئهم خاطئة و منهم من وقع ضحية الخديعة؛ ليسوا مخادعين بالضرورة لكنهم وقعوا معنا في المصيدة ذاتها. هناك شيء واحد مؤكد بالضرورة: طالما طلب من أحدنا أن يعتقد و يؤمن سيبقى مستعبداً؛ لن نتحرر من عبوديتنا طالما هناك من يطلب منا بشيء ما ... قد نؤمن بالمحمدية أو بالمسيحية أو بغيرها، قد نؤمن بالشيوعية أو بعدمها و قد نؤمن بالعلم أو بعدمه كائناً ما كان المعتقد و طالما طلب منا الإيمان بما قال أحدهم، طالما قيل لنا إن صدقنا سنسعد و إن كذبنا سنعذب... طالما بقيت هذه الخدعة مستخدمة لخداعنا لن نكون قادرين على استجماع الشجاعة اللازمة للتحرر من مأزقنا الفكري.

إن ما أريد قوله هو: إذا أردنا التخلص من المستنقع الفكري المتشكل داخلنا و الذي جمعناه من قرون عديدة و تجمعت فيه انطباعات، آثار و مستحاثات من مئات الأعوام و القرون علينا

obeikandi.com

أن نفهم يقيناً شيئاً واحداً و هو « لا يوجد ما هو قاتل و انتحاري أكثر من الإيمان »علينا أن ندرك يقيناً شيئاً واحداً وهو « أن تؤمن مغمضاً عينيك؛ أن تقبل صامتاً معناه أن تفقد كل معنى لحياتك، و هذا ما يحصل معنا حتى الآن.

يطلب منا الجميع أن نؤمن بما يقول هو فقط لتوهمه بأنه وحده هو المصيب كما يطلب منا الجميع ألا نؤمن بالآخرين لظنه أنهم مخطئون جميعاً.

أن تؤمن يعني أن تدمر حياتك؛ أن تتخذ لحياتك قاعدة إيمانية يعني دخولك عالم العدمية و لا يمكن لأي نور أن ينير حياة كهذه... أن تؤمن بالآخرين يعني عدم قدرتك على معرفة نفسك.

إذا كان الإيمان خطأً، فهل الإنكار، أي عدم الإيمان، هو الصواب ؟ بالطبع لا... قد نعتقد أن عدم الإيمان بشيء ما يعني ضمنياً إنكاره و هذا غير صحيح، فهناك حالة فكرية لا تكون فيها مؤمناً و لا منكراً... ما الإنكار إلا أحد أشكال الإيمان، فعندما نقول مثلاً « لا نؤمن بالله » فهذا يعني أننا نؤمن بعدم وجوده؛ عندما نقول أننا لا نؤمن بالروح فهذا يعني أننا نؤمن بعدم وجودها ... الإيمان و الإنكار متشابهان تماماً وليسا مختلفين و كل ما في الأمر أن الإيمان إيجابي و الإنكار

سلبي؛ الإيمان يقين موجب و الإنكار يقين سالب و كلاهما يقين.

إذا أراد أحدنا أن يتحرر من مستنقعه الفكري الداخلي عليه أن يتحرر من اليقين و الإيمان؛ عليه أن يكف عن طلب آراء الآخرين و عليه أن يتخلى عن فكرة النظر للآخرين على أنهم القادرون على قيادته إلى الحقيقة... طالما اعتقد أحدنا بأن أحدهم قادر على إعطائه الحقيقة فسيكون في العبودية بأحد أشكالها، فإذا تحرر من العبودية لشخص أو لمذهب سيقع في عبودية آخر و إذا تحرر من عبودية هذا الآخر سيجد بالتأكيد من يقع تحت عبوديته... و أن تنقل مركز عبوديتك من سيد لآخر لن يحررك إلا مؤقتاً.

عاش في إحدى القرى رجلان، أحدهما موحد تمام التوحيد والآخر ملحد تمام الإلحاد... اعتاد الموحد التحدث عن الله ووجوده كما اعتاد الملحد على دحض كل ما يقول الموحد... احتار أهل القرية بأمر هذين الرجلين و بأمر من يتبعون منهما ثم قرروا بأن حيرتهم هذه لن تنتهي ما لم يدعى كلاهما إلى مناظرة أمام الجميع و سيتبع أهل القرية الفائز منهما.

عقدت المناظرة في إحدى الليالي المقمرة و قدم كل منهما نظرياته و حججه، استمرت المناظرة حتى الصباح لكن

مشكلة أهل القرية لم تحل فقد أقنع كل من الرجلين الآخر فتحول الموحد إلى ملحد و الملحد إلى موحد.

لن يجدي حياتك نفعاً أن تنقل اعتقادك من مركز لآخر، ليست مشكلة وجودنا بمن نؤمن بل بأن نؤمن بالأساس و طالما استمر إيمان أحدنا استمر بسجن نفسه بطريقة أو بأخرى؛ بمكان أو بآخر.

كيف يمكن لأحدنا التحرر من سجنه الفكري الذي يأسر كامل وجوده و لا زال مؤمناً به ؟ قد يصعب ذلك لكنه ممكن إذا اقتلعنا حجارة ذلك السجن.

يعتبر الإيمان البنية التحتية و حجر الأساس لكومة الأفكار، و على قاعدة إيمانية صلبة وقع الإنسان في قبضة تلك الأفكار و عندها أيضاً جاء الخوف و أمسك به... و لكن ماذا لو تجاوزناهما ؟ قد يقول أحدنا: إذا وجدت أفضل مما أنا عليه الآن فسأنتقل إليه، لكن فكرة العبودية لا زالت موجودة.

لا تتحقق الحرية الفكرية بتغيير المعتقد بل بالتحرر منه كلياً.

أثناء زيارته لإحدى القرى قدم إلى بوذا مجموعة رجال أحدهم أعمى فقال البقية « هذا الرجل أعمى و نحن أصدقاؤه المقربون، يرفض هذا الرجل الاعتراف بحقيقة وجود شيء اسمه ضوء، رغم المحاولات العديدة لإقناعه إلا أننا لم نفلح

obeikandl.com

سوى بإعلان الفشل... كان يقول بأنه يريد لمس الضوء فكيف لنا ذلك ؟ ثم يعود ليقول بأنه إذا لم يكن ممكناً لمس الضوء فيريد سماعه لأن له أذنان فيطلب منا إسماعه صوت الضوء وإلا يريد تذوقه أو شم رائحته. »

من المستحيل إقناع هذا الرجل فلا يمكن تحسس الضوء سوى بالرؤية، لذلك اعتقد صديقنا بأن أصدقاؤه ما اختلقوا تلك القصة إلا لإثبات عماه.

لذلك طلب الأصدقاء من المعلم محاولة إقناعه.

فقال « لست مجنوناً بما فيه الكفاية لأحاول إقناعه... بدأت مصاعب الإنسان على يد من يحاولون شرح أشياء لا نستطيع رؤيتها... الواعظون و المبشرون طاعون للبشرية فهم يخبروننا بأشياء لا نراها. »

ثم تابع « لا يمكنني شرح شيء لهذا الرجل عن الضوء؛ لن أرتكب خطأً بهذه الجسامة... لقد أتيتم إلى المكان غير المناسب... لا يحتاج هذا الصديق واعظاً بل يحتاج طبيباً يعالج عينيه و عندما يتحقق ذلك لن يعود بحاجة للشرح و الوعظ والإفتاء بل سيدرك من تلقاء نفسه. »

اصطحب الرجال صديقهم إلى الطبيب و لحسن الحظ تم علاجه خلال عدة أشهر، في تلك الأثناء كان بوذا قد غادر إلى

obeikandl.com

قرية أخرى فذهب إليه الرجل الذي كان أعمى وقال « كنت مخطئاً بالفعل، هناك شيء يدعى ضوءً لكنني لم أكن قادراً على إدراكه. »

قال بوذا أخيراً « بالتأكيد كنت مخطئاً، أما الآن فقد عولجت عيناك لأنك رفضت القبول بما قاله الآخرون حتى اختبرته بنفسك، لو أنك قبلت ما قاله أصدقاؤك دون اختبار لانتهى الأمر بالنسبة لك و لما كانت هناك حاجة لعلاج عينيك.»

أن تؤمن يعني أن تصبح عاجزاً عن تحقيق أي فهم، أن تقبل بصمت يعني ألا تستطيع امتلاك أي اختبار فردي، تنتهي رحلتك عندما تتيقن من وجود النور لمجرد إخبار الآخرين لك بذلك، و تستمر رحلتك فقط عندما يكون هناك عدم استقرار يأتي عندما تشعر بأن هناك ما يتحدث عنه الآخرون و لا تستطيع رؤيته لذلك لا يمكنك قبوله... لا يمكنك القبول إلا عندما ترى... « لا أستطيع أن أقبل حتى أرى » هذا هو النوع من القبول الذي يجب أن يسكن أفكارنا.

إن من يطلب منك الإيمان كأنه يقول لك بأنك لست بحاجة لعينيك، كان للمسيح عينان و هذا يكفي؛ كان للحبيب محمد عينان و هذا يكفي فما حاجة كل هذا العالم للعيون...

obeikandl.com

كان للمعلمين عيون فكتبوا و نقلوا كلما رأوا و ما حاجتنا للرؤية، كل ما علينا هو القراءة و الإيمان... نظروا بأعينهم وما علينا سوى القراءة و الإيمان.

وعظ و تبشير من هذا النوع هو ما أدخل الإنسان في متاهات العمى، و ما زال معظم سكان هذه الأرض متمسكين بعماهم و من المحتمل جداً أن يستمر هذا في المستقبل لأننا و ببساطة قتلنا الدافع الحقيقي لتصحيح هذا العمى و ذلك بقبولنا.

و لكن علينا القول و الإقرار: قد تكون عينا المسيح سليمتان و ثاقبتان كعيون النسور لكنهما ليسا عينيك؛ قد تكون عينا محمد بجمال أجمل الورود لكنهما ليسا عينيك، و قد تكون عيناك عاديتان من حيث الحدة و الجمال لكنهما عيناك و لن تتمكن من الرؤية إلا بهما.

لا يمكن لاعتناق آراء الآخرين أن يوصل أحدنا لأي فهم لذلك على كل منا البحث عن فهمه الفردي و لا يمكن أن تبدأ رحلة البحث عن هذا الفهم إلا بالتخلي عن فكرة الآخر... ما دام هناك بديل خارجي؛ ما دام هناك مزود خارجي لا يمكن لرحلتك أن تبدأ.

يظهر التحدي في الأعماق عند غياب أي دعم خارجي و استحالة تحقيق أي شيء اعتماداً على الآخرين و عندها نبدأ بالبحث عن منهجنا الفريد و المميز.

الإنسان كسول للغاية، فإذا استطاع الحصول على المعرفة دون بذل أية جهود فلم عليه بذل تلك الجهود؛ إذا أمكن تحقيق الاستنارة لمجرد الإيمان بأحدهم فلم على أحدنا الشروع بالإعداد لرحلته الفردية نحوها !! عندما يقول أحدهم لأحدنا «اصعد زورقي و سأوصلك الضفة المقابلة دون عناء و هناك ينتهي الأمر..» دون شك سيفضل الصعود و الاستسلام لنوم مريح.

و لكن لا يمكن لزورق أي كان أن يأخذك لأي مكان و لا يمكن لأحد أن يرى بعيني آخر... لا بد و لا مفر من السير على الأقدام؛ يجب أن ينظر كل منا بعينيه وحده و يجب أن يحيا بتناغم مع نبضات قلبه... يجب أن يحيا أحدنا حياته و يجب أن يموت على حقيقته، فلا يمكن لأحد أن يحيا حياة آخر و لا يمكن له أن يموت ميتةً... إذا كان في هذا العالم ما هو مستحيل فأن يحيا أحدنا حياة الآخر.

جُرح جنديان صديقان أثناء الحرب العالمية الثانية... كانت جراح أحدهما بليغة و يوشك على الموت أما الآخر فكان مجروحاً لكن نجاته محتملة.

عانق الجندي الذي يوشك على الموت صديقه و قال « يجب أن نفترق الآن فحالتي ميؤوس منها لكنني أريد أن أقترح عليك شيئاً: أعطني دفتر سيرتك الذاتية وخذ دفتري، ففي دفترك العديد من الأمور المخجلة أما دفتري فجيد بعض الشيء، وهكذا يعتقد قادة الجيش بأنك ميت و بأني قد نجوت، ستصبح بهذا أكثر احتراماً و يمكنك الحصول على ترقية جيدة... هيا فلنتبادل الدفاتر و الأرقام بسرعة. »

ما اقترحه هذا الجندي ممكن لأنه للجنود أرقام و ليس أسماء و لهم دفاتر سير و ليس أرواح، و بهذه الطريقة يحدث التبادل فيموت السيء و ينجو الجيد.

فأجاب الناجي منهما « اعذرني يا صديقي... يمكنني أن آخذ دفترك و رقمك و يمكنك أن تأخذ دفتري و رقمي لكنني سأبقى أنا، أنا رجل سيء و سأبقى سيئاً -أنا أشرب الخمر والكحول و سأبقى كذلك؛ أذهب للعاهرات و سأبقى كذلك -كم ستبقى السيرة النظيفة نظيفة و كم سيستطيع الدفتر خداع الآخرين ؟ بالعكس سيصبح كلانا سيئاً حيث

ستموت أنت بوصفك الرجل السيء و يبقى السيء الحقيقي حياً... الآن سيقول الناس مات الرجل الجيد و سيقدمون لك الورود، أما إذا أصبحت سيئاً فلن يعطيك أحد وروداً... لا يا صديقي، لا يمكنك أن تصبح أنا و لا يمكنني أن أصبح أنت... لولا حبك لي ما كنت لتقترح هذا لكنه مخالف لقوانين الحياة... تبادل الأدوار في الحياة غير ممكن، لا يمكن لأحد أن يحيا مكان آخر و لا يمكن له أن يموت مكانه... لا يمكن لأحد أن يعرف و يتعلم بالنيابة و لا يمكن له أن يرى بالنيابة. »

من يطلب منك أن تؤمن هو إنسان يطلب منك أن تنظر و ترى بأعين الآخرين من معلمين و قادة... آمنا طويلاً مما أوقعنا بشبكة متشابكة معقدة من الظلمة... اختلق آلاف المعلمين حولنا مقداراً هائلاً من الضجيج ثم اختلق أتباع آلاف المعلمين حولنا أيضاً مقداراً هائلاً من الضجيج، اختلقوا خوفاً مرعباً من الجحيم و طمعاً جشعاً بالجنة، و ببطء تدريجي بدأنا نقبل ما يقولون الأمر الذي أوجد المزيد من التناقضات داخلنا مما أوقف رحلة حياتنا عوضاً عن دفعها نحو الأمام.

أول ما على الإنسان اليقظ هو قول وداعاً لكل أفكاره المتناقضة ثم يقرر « لا أريد أن أؤمن... أريد أن أعرف، في اليوم

الذي أحصل فيه على معرفتي يمكنني استخدام الكلمة «إيمان» و قول ذلك لا يمجد في معجم مصطلحاتي كلمة بهذا الاسم، قول ذلك هو خداع و خداع للذات... لا أستطيع أن أخدع نفسي و أقول بأني أعرف و أنا لا أعرف؛ لا يمكنني أن أقول بأني أرى و أنا لا أرى... محال أن أقبل عن عمى و بصمت. »

هذا لا يعني أن نعمد لنبذ شيء ما، الأمر ببساطة أن نستطيع الوقوف بعيداً عن القبول و بعيداً عن النبذ؛ الأمر ببساطة أن نقول « لا أقبل و لا أرفض؛ لا أقول أن ما قاله محمد أو المسيح خطأ كما لا أقول أنه صحيح لكنني أقول لا أعلم ما الذي قاله محمد؛ لا أعلم ما الذي قاله المسيح و لا أستطيع بالتالي القبول أو الرفض... في اليوم الذي أتحقق فيه من صحة ما قيل يمكنني أن أقبل، أما إذا تبين لي بأنه خاطئ عندها بالطبع لا يمكنني القبول... أما الآن فلا أعلم فكيف لي قول نعم أو لا ؟!!! »

إذا استطاعت أفكارنا أن تنأى بنفسها بعيداً عن القبول و عن الرفض عندها سينهار المأزق الفكري في التو و اللحظة... أجبرت عقولنا على قبول فهم مفاده بأن كل من يؤمن و يعتقد هو متدين و كل من لا يؤمن غير متدين... في الحقيقة كل من يؤمن و يعتقد ليس متديناً، أما غير المؤمن فليس متديناً أيضاً...

المتدين هو الحقيقي و الإنسان الحقيقي لا يؤمن و لا ينكر بكل ما لا يعلم؛ المتدين هو من يرفض رفضاً قاطعاً كل ما لا يعلم... إنه جاهل و لا يحتاج قبولاً و لا رفضاً.

أتستطيع استجماع القوة و الشجاعة لتقود وجودك إلى تلك النقطة المتوسطة ؟ إذا كان نعم سينهار سجنك الفكري في التو و اللحظة.

ختاماً أخي الكريم أطلب منك أن تفكر بما قرأت في هذا البحث؛ أطلب منك أن تبحث و ترى و تتحرى اعتماداً على اختباراتك الذاتية فمن الممكن أن يكون خاطئاً... أما إذا وجدت و شعرت أن فيه بعض الحقيقة؛ إذا وجدت نتيجة البحث و النظر من نافذتك الفكرية بأن هناك حقيقة فيه يمكن عندها أن تصبح تلك الحقائق حقائق بالنسبة لك و ليست بالنسبة لي فقط... عندها لن يكون فهماً لي فقط بل سيصبح فهماً لك أيضاً، و عندها يصبح كل ما تقوم به سبيلاً لقيادة حياتك نحو شواطئ الحكمة و اليقظة و الصحوة، أما ما تقوم به اعتماداً على الإيمان و الاعتقاد لن يقودك إلا نحو المزيد من الظلمة و الضياع.

obeikandl.com